

جواب زكريا وجواب مريم على بشارة الملاك جبرائيل الإنسان وقبوله لله

إنجيل القديس لوقا هو العمل الوحيد في العهد الجديد، الذي يَسْتَخْدِمُ الأسلوب الأدبي المسمّى بـ "موازاة" (Parallelism) للتكلم عن الحبل ببسوع والحبل بيوحنا المعمدان. نلمسُ هذه الموازة في السرد الروائي على امتداد كُلِّ إنجيل الطفولة (لو ١-٢)، الذي يتكلم ليس فقط عن مولد يسوع المسيح، بل أيضاً عن مولد يوحنا المعمدان. يوازي لوقا بين بشارة زكريا وبشارة مريم، وبين مولد يوحنا المعمدان ومولد يسوع، وبين ختان يوحنا وتقدمة يسوع إلى الهيكل، لينتهي مع رواية يسوع في عمر اثنتي عشرة سنةً وهو يتكلم مع معلّمي الشريعة. سندرسُ في هذا المقال، بشكل خاص، الاختلافَ بين جواب زكريا (لو ١: ٥-٢٥)، وجواب مريم (لو ١: ٢٦-٥٦)، على بشارة الملاك جبرائيل. وسنحلل تطوّر الرواية على هذا الأساس.

كان زكريا كاهناً تقيّاً، ومؤمناً، وسائراً حسب وصايا الشريعة. كان، هو وامرأته أليصابات، "بَارَيْنِ أَمَامَ اللَّهِ، سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْمٍ" (لو ١: ٦). ومع ذلك كان زكريا وأليصابات شخصين عاقرين. هذا الوضع، الخاص جداً، يُدْخِلُ إشكاليةً على هذه الرواية. كيف بوسع زوجين مُؤْمِنَيْنِ، وقد باركهما الله، أن يكونا محرومين من نعمة الإنجاب؟ ما هي الخطيئة التي ارتكبتها زكريا ليحرمه الله من هذه البركة؟ إن مثل هذه الأسئلة، وأسئلةً أخرى كثيرة، تخطرُ على بال قراء أخبار الطفولة.

لا شك أن زكريا وأليصابات يمثلان مؤسّسة الهيكل - ومن ورائه الدين اليهودي القديم - الذي كان محور العبادة في اورشليم. وبكل وضوح، كان الهيكلُ مكانَ الوحي الإلهي. مع ذلك، تظهرُ مشكلةٌ يطرحها لوقا من خلال روايته. إنَّ ما هي هذه المشكلة، وما هو الحلُّ الذي يعطيه لوقا حيالها.

الله هو من يأخذ المبادرة. هو الذي يُرسلُ الملاكَ جبرائيل، رسولَ الله في التقليد الأدبي الخاص بالكتاب المقدس، ليبشّرَ زكريا بنهايةِ ألمه الكبير. فالملاك يبشّره: «لَا تَخَفْ يَا زَكْرِيَا، لَأَنَّ طَلِبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ، وَامْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوحَنَّا..... وَيَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ..... لِكَيْ يَهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا» (لو ١: ١٣-١٧).

يُمكننا التعليقُ على خبر جبرائيل من نواحٍ عدّة. نرى، أولاً، أنَّ العقمَ كان مشكلةً بالنسبة لزكريا. وكانت هذه المشكلة جزءاً لا يتجزأ من طلباته إلى الله. ولقد قرّرَ الله، هذه المرّة، أن يستجيبَ له. ولكن هذا لن يكون لصالح زكريا الخاص فقط، بل لصالح كل الشعب. سيكون اسمُ ابن هذا الكاهن الشيخ: يوحنا، ومعناه: "الله يتحنّن"، ومعهُ يبدأ الله افتقاده لشعبه المؤمن، الذي كان، في هذا الوقت "مُنْتَظَرًا" (لو ١: ٢١) زكريا خارج الهيكل. لا يُشيرُ هذا الانتظارُ

فقط إلى إبطاء زكريا في الهيكل، ولكنه يعكس أيضاً، وبشكل أكبر، انتظار الشعب أن يتدخل الله ليخلصه، ويداويه من "عقمه"، أي من فقره، ومن نير الظلم الروماني. فهل عرف زكريا أن يُصغي لأهمية هذه الرسالة؟ لئلا جوابه:

«كَيْفَ أَعْلَمُ هَذَا؟»

لأنِّي أَنَا شَيْخٌ وَأَمْرَاتِي مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامِهَا؟» (لو ١ : ١٨).

في جواب زكريا جانبان رئيسان: سؤال، وتبرير لهذا السؤال. فعبارة "كَيْفَ أَعْلَمُ هَذَا؟"، هي عبارة كتابية معروفة لطلب آية إلهية (راجع تكوين ١٥ : ١٨؛ قضاة ٦ : ١٧؛ أشعيا ٧ : ١١، ٣٨ : ٧). لم يكتف زكريا بكلمة الرب التي نطق بها الملاك جبرائيل، بل أراد آية، أي علامة ملموسة لأن ما قاله الملاك جبرائيل -حسب تبريره- مستحيل أن يتحقق. ولهذا، فقد ركز على عمره، وعلى عمر امرأته المتقدم. شك زكريا. وأتى جوابه مُعبراً عن ذلك. فبالرغم من الرؤيا التي عاينها في الهيكل، أثناء الصلاة، اعتبر زكريا أن سنوات العقم العديدة، لا يمكن أن تُمحي بسهولة، بكلمتين، وبمبادرة بسيطة. لم يستقبل زكريا الرسالة البتة. ولأنه لم يُصغ، لن يتمكن من الكلام الآن. لقد قرر الملاك أن يعطيه الآية المطلوبة، وهي أن يمنعه من الكلام مع الآخرين عن كل ما حدث إلى أن تتم كلمة المرسل. فإن اختار هذا الكاهن أن يُصم أذنيه عن سماع الرسالة الإلهية، فعليه أن يكون أبكم أيضاً. وإذا لم يسمع، فلن يتكلم أيضاً. تضعنا هذه الرواية أمام كاهن أخرس. فبالسخرية، إن كان الكلام والوساطة بين الله والشعب هو عمل الكاهن الأساسي، فإن كاهننا هذا أخرس. فوظيفة الوساطة هذه لم تتم إلا بشكل جزئي: «فَلَمَّا حَرَجَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ فَفَهَمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى رُؤْيَا فِي الْهَيْكَلِ. فَكَانَ يَوْمَئِذٍ إِلَيْهِمْ وَبَقِيَ صَامِتًا» (لو ١ : ٢٢). ازداد انتظار الشعب حرارة، ليس بفضل زكريا، بل بفضل التدخل الإلهي وحكمته ليقهر فظافة البشر وعنادهم.

أما مريم فهي أيضاً يهودية مثل زكريا. ولكنها بعيدة عن الاضطلاع بوظائف عامة ودينية على مثال زكريا. إنها شابة بسيطة من الشعب. وهي عذراء مرتبطة، وتنتظر الزواج. كانت تعيش في شمال أورشليم، في قرية صغيرة من الجليل اسمها الناصرة. لم يكن الجليل منطقة مشهورة بفضيلة مؤمنها أو أنبيائها، بل بالعكس، كانت هذه الأرض مطبوعة بالوثنية وتعدد الآلهة، وباضطهاد كل الذين يحاولون العيش حسب الشريعة. في هذه الرواية، لا تمثل مريم آية مؤسسية رسمية يهودية، بل عامة الناس، وعامة الشعب الذي ينتظر خلاص الرب، وهو يريز تحت الظلم والطغيان.

وصلت البشارة إلى العذراء بهذه الطريقة:

"لَا تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، فَقَدْ نَلْتِ حُظْوَةً عِنْدَ اللَّهِ. فَسَتَحْمِلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا فَتَسَمِيهِ يَسُوعَ. سَيَكُونُ عَظِيمًا وَأَبْنِ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُولِيهِ الرَّبُّ الْإِلَهَ عَرْشَ أَبِيهِ دَاوُدَ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ أَبَدَ الدَّهْرِ، وَلَنْ يَكُونَ لِمُلْكِهِ نَهَايَةٌ." (لو ١ : ٣٠-٣٣).

تتضمنُ بشارَةَ مريمَ شيئاً يصعبُ تصديقه، مقارنةً ببشارة زكريا. فالملاكُ جبرائيلُ يؤكدُ أن ابنها سيكون مَلِكاً أبداً الدَّهرِ. وألقابُه المختصَّةُ بعرش داود، وبابنِ العليِّ، هي ألقابُ خاصةٌ بالسَّلالةِ المَلَكِيَّةِ اليهودية، وتُثيرُ في قلب كلِّ يهوديٍّ مؤمنٍ مشاعرَ الحماسةِ بانتظار مجيء المسيح، "المسيَّا"، الذي يخلِّصُ الشعبَ من كلِّ آلمٍ. فاسمُ هذا الابنِ، يسوع، يعني الخلاص، وهو اسمٌ وظيفيٌّ، ويُشيرُ إلى الغايةِ من مجيئه. هل بوسعِ مريمَ أن تقبلَ هذه الرسالة؟ أوسيكون لديها، بالأحرى، ردةً فعلٍ على مثال زكريا، فتطلبُ آيةً؟ لندرسُ جوابَ مريم:

«كَيْفَ يَكُونُ هَذَا

وَلَا أَعْرِفُ رَجُلًا؟» (لو ١ : ٣٤).

يُقَسِّمُ جوابُ مريمَ إلى قسمين أيضاً: سؤالٌ، وتبريرٌ لهذا السؤال. لكنَّها، بخلاف زكريا، لا تطلبُ علامةً. هي تذهبُ إلى أبعَدَ من كلام الملاك. فالحَدَثُ، بالنسبة لمريم، هو حقيقة. ولذلك، فهي تسألُ عن طريقة تحقيقه، دون أن تشكَّ بذلك. إنها لا تضعُ شرطاً بإعطاء آية، بل تطلبُ إدراكَ كلمة الملاك، وأكثر من ذلك أيضاً، تطلبُ تعليماتٍ. مريم، بكل تأكيد، وبالاختلاف عن زكريا، ليست عاقراً، لذلك، لديها أسبابٌ أقلُّ منه لتشكُّ في إمكانية الحصول على ابن. كان المطلوب من مريم فقط أن تقبلَ أن تكونَ شريكةً في هذا المشروع الذي يقدمه الملاك. وهذا مهمٌّ جداً. فليس لهتافِ مريم الأخير ما يوازيه في رواية زكريا، وهو ما يميِّز الدورَ الذي ستلعبه العذراء:

«أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ. فَلْيَكُنْ لِي بِحَسَبِ قَوْلِكَ» (لو ١ : ٣٨).

عندما شرحَ الملاكُ لمريمَ التَّدخُلَ الإلهيَ بعبارةٍ كتابيةٍ بامتياز، لم تتردِّد، وهي المؤمنة والواثقة بكلام الله، أن تُظهِرَ استعدادها الكاملَ للمشاركةِ فيه: «إِنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ سَيَنْزِلُ عَلَيْكَ وَقُدْرَةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكَ، لِذَلِكَ يَكُونُ الْمَوْلُودُ قُدُوساً وَابْنُ اللَّهِ يُدْعَى» (لو ١ : ٣٥). تشكُّلُ هذه الفقرة خلاصةً للعبارات الكتابية التي تصفُ أبعاد عمل الله الخلاصيَّ تجاه شعبه. الروح القدس هو ذلك الروح الذي كان حاضراً في الخلق، والذي رافقَ الشعبَ في البرية. كما أن قدرة الله تشكلُ سحابةً مُظَلَّلَةً تُذَكِّرُنَا بعهد سيناء في سفر الخروج. والقداسةُ هي الموضوعُ الرئيسيُّ في سفر اللاويين. يبشِّرُ الملاكُ مريمَ بكلماتٍ ليست غريبةً عليها، لأنها تعرفُ كلامَ الله، وتعيشه. وهو لا يُؤنَّبُ مريمَ، بعكس ما فعله مع زكريا عندما قال له: «سَتُنْصَابُ بِالْخَرَسِ..... لِأَنَّكَ لَمْ تُؤْمِنِ بِأَقْوَالِي» (لو ١ : ٢٠). جوابُ مريمَ على المبادرةِ الإلهيةِ مثاليٌّ، ويُجسِّدُ ما رآه مراراً أنبياءُ العهد القديم، عندما قالوا:

«وَأَتَزَوَّجُكَ إِلَى الْأَبَدِ. أَتَزَوَّجُكَ بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، أَتَزَوَّجُكَ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، فَتَعْرِفِينِ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ»

(هو ٢ : ٢١-٢٢).

«هَذَا مَا يَقُولُ الرَّبُّ: أَذْكَرُ مَوَدَّتِكَ فِي صِيبِكَ، وَحُبِّكَ يَوْمَ حَطَبْتُكَ، سِرَّتِ وَرَائِي فِي الْبَرِّيَّةِ، فِي أَرْضٍ لَا زَرْعٍ

فِيهَا. إِسْرَائِيلُ مَكْرَسَةٌ لِلرَّبِّ، بَاكُورَةٌ غَلَّتِهِ فِي الشُّعُوبِ» (إر ٢ : ٢-٣).

هذا يعني أن العهد القديم يُشبهه، ولعدة مرّات، علاقة الله مع شعبه بعلاقة بين العريس وعروسه. إسرائيل هو، في العهد القديم، عروس لم تكن على الدوام أمينةً لسيدّها، وانصرفت إلى عبادة آلهة أخرى، ونسيبت من أعطائها حياة من العدم، ومن العبودية. وقد عبّر الأنبياء، وباستمرار، عن أمنيّتهم في أن يحضر إسرائيل، في نهاية الأزمنة، أمام إلهه مثل عروسٍ نقيّة، أمينةٍ لسيدّها الوحيد، ومستعدةٍ لتعيش في بيته إلى الأبد.

في عُقر دار الاعتقادات الوثنية بين اليهود، أي في الجليل، في المنطقة التي لا يأمل الكثيرون أن يكون الإيمانُ خصباً فيها، عذراءٌ شابةٌ قرّرت أن تقول: "نعم" ردّاً على دعوة الله، وأن تُعيد الحياة لرجاء الأنبياء في أنه سيأتي يومٌ يتقدّم فيه الشعبُ إلى الله بلا عيبٍ لكي يمكث معه إلى الأبد. في قرار مريم تعبيراً عن موقفٍ يتعارض، بحِدّة، مع شكّ زكريا ومع موقفه التّقوي التقليدي. اختارت مريم الحياة. ووهبت نفسها لذلك.

لذا، فإن "نعم" مريم، هي "نعم" لا نظير لها. فمريم تُمثّل هذا الموقف الإيجابي أمام حبّ الله، وتستسلم للمشاركة في كامل المشروع الإلهي. مريم هي، هنا، نموذجٌ لجماعة المؤمنين، وتدعونا إلى الاقتداء بها. فإذا ما تصرّفنا على مثال مريم، وقلنا "نعم" لرسالة الله، نفتح الطريقَ ليسوع، لكي ينمو حبه في داخلنا، ولكي نشهد عن حبه، وعن رسالته، حيثما يريدنا أن نذهب.